مصر حلقة الاتصال الثقافى بين الشرق والغرب

امتازت مصر على كثير غيرها من مراكز الحضارة فى العالم بأنها جمعت فى حضارتها بين أمور ثلاثة ، هى القدم ، والاستمرار ، والاتصال المنتظم بالعالم الخارجى فى الشرق والغرب . فأما عن القدم فإن مصر فى إجماع الباحثين من أقدم مواطن حضارة البشر التاريخية ، إن لم تكن أقدمها فى كثير من ضروب المدنية . بل إن بعض عناصرها الأولى ترجع إلى عهود طويلة قبل فجر التاريخ . وقد بدأت فيها الزراعة وما صاحبها من استقرار فى القرى ، وانتقال من الحياة القَبَلية المتنقلة إلى الحياة المدنية المستقرة ، حول الألف السادسة أو الخامسة قبل الميلاد أى منذ سبعة آلاف سنة على وجه التقريب . ثم بدأ التاريخ المكتوب فى مصر بعد ذلك بألفى سنة ، أى فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد .

وأما عن الاستمرار فإن التاريخ المصرى من حيث اتصال حلقاته يعتبر أطول التواريخ . ومع أنه حدثت فيه فترات انقطاع ، كعهد الاقطاع الأول بين الدولة الفرعونية القديمة والدولة الوسطى ، وكعهد الأقطاع الثانى بين الدولتين الوسطى والحديثة ، وعهد الاضمحلال الأخير بعد عصر الفراعنة ، وعهد غزوة الأتراك وما تلاها ، فإن تلك العهود جميعاً إذا ما أضيف بعضها إلى بعض لا تزيد على جزء محدود من تاريخ المدنية والحضارة فى مصر ، بل لا تكاد عهود الركود والاضمحلال فى تاريخنا الطويل تتجاوز بضعة عشر قرناً على أوسع تقدير ، وهى نسبة ضئيلة إذا ماقيست بعهود الركود فى تواريخ غيرنا من الأمم . وقد استطاعت هذه البلاد أكثر من مرة أن تنهض بعد اضمحلالها ، وأن تجدد التاريخ بعد عفائه ؛ فاحتفظت بمكانتها فى عالم المدنية والثقافة خلال ثلاثة أرباع تاريخها أو ما يقرب من ذلك ؛ كما استطاعت رغم أدوار الصعود والهبوط أن تحتفظ على مر الأيام بطابعها الحضارى العام ، وأن تنمى ثقافتها بما تحييه من تراثها

القديم، وماينبعث فيها من روح جديد يترع إلى الخلق والابتكار حيناً، وإلى التجديد بالاقتباس من العالم الخارجى حيناً آخر.

وقد كان اتصال مصر بالخارج قديماً قدم الحضارة فى مصر؛ بل إن مصر لم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن غيرها من الأمم، وإن كانت الصحارى على الجانبين والبحار فى الشمال والجنوب الشرق قد نظمت ذلك الاتصال، وجعلته فى حدود معينة، سمحت لمصر أن تأخذ عن الخارج ما ينمى حضارتها، ويغذى ثقافتها، ويعينها على أن تكون واسطة بين الشرق والغرب، ولكنه فى الوقت ذاته لا يطغى على روحها، ولا يطمس معالم مدنيتها المميزة. كذلك لم يكن اتصال مصر بالخارج واحداً فى كل العهود؛ بل هو فى الواقع كان مرتبطاً بعاملين: أولهما سعى مصر لأن تتصل بالعالم المجاور، وأن تبادل أهله سلع التجارة وألوان الفكر والثقافة. وثانيهما تلك الصلات العالمية التى كان لا بدّ لها أن تسلك طرقاً معينة رسمتها الطبيعة بحيث تمر فى أرض الزاوية التى يتصل فيها اليابس ويكاد يقترن الماء. والناظر إلى تاريخ الصلات العالمية بين الشرق والغرب يستطيع أن يميز فى غير صعوبة بين عصرين كبيرين، تفصل بينهما نقطة تحوّل خطير اتفقت وغزوات الإسكندر. فقبل عهد الإسكندر كانت هناك عدة مناطق لكل منها حضارتها الخاصة، فى الصين، والهند، والشرق الأدنى الأسيوى، ومصر، وبلاد الإغريق. وكانت كل من هذه المناطق تكوّن عالماً حضاريًّا متميزاً، لا يتصل اتصالاً مباشراً إلا بالعالم المجاور له؛ كاحتكاك مصر بالشرق الأدنى الأسيوى، أو بلاد الإغريق بمصر، أو الشرق الأدنى ببلاد الإغريق. فلما جاء الإسكندر وقام بحملته التاريخية من بلاد الإغريق إلى الشرق الأدنى ثم مصر ثم حدود برقة، ثم عاد إلى مصر، ومنها إلى الشرق الأدنى وإيران وتركستان الغربية وحدود تركستان الصينية، ثم اتجه نحو الهند، ثم عاد إلى الشرق الأدنى وقضى نحبه؛ كانت هذه أول حملة احتكّت فيها مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكاً مباشراً، ترك أثره وطابعه الدائم فى حياة الناس وأفكارهم؛ وكانت هذه أول حرب «عالمية» بالمعنى المعروف؛ لأنها امتدت من البحر المتوسط إلى حدود الصين، وترتب عليها ما يترتب عادة على أمثال هذه الحروب الواسعة؛ فتقاربت أجزاء العالم، وظهرت «العالمية»، أو بعض بوادرها على الأقل، ووضعت أسس الاتصال العالمى،

ففتحت الطرق ، وسعى عليها التجار والملاحون فى البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضاً قبل عهد الإسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة .

وقد يعنينا بصفة خاصة أن نلحظ ما نشأ عن هذه العالمية ، وما صحبها وترتب عليها من ثورة فكرية لا نزال نلمس أعقابها وآثارها حتى اليوم ؛ وقد تمثّل ذلك على وجه الخصوص فى أن الفكر الدينى فى الشرق الأدنى اتجه اتجاهاً جديداً كان له أثره الدائم فى الحياة الدينية والروحية ، وما داخلهما واتصل بهما من فكر وثقافة والذى يدرس تاريخ الأديان فى الشرق الأدنى لا يملك إلا أن يلمس الفرق بين اليهودية من ناحية ، والمسيحية والإسلام من ناحية أخرى . فقبل عهد الإسكندر (القرن الرابع ق . م .) لم يكن الناس مهيئين لأن يتقبلوا الأديان « التبشيرية » ، أى التى يفرض على من يؤمن بها إبلاغ الرسالة إلى غير المؤمن ؛ وعلى هذا جاءت اليهودية غير تبشيرية ، ولم تنتشر فى العالم ؛ ومع أن اليهود ساروا فى الأرض وانتشروا فيها انتشاراً عنصريًّا ، فإنهم لم يذيعوا ثقافتهم ولم يبشّروا بدينهم بين الناس ، على حين جاءت المسيحية والإسلام بعد الإسكندر دينين تبشيريين ، دعت الأولى إلى المحبة الشاملة ، ودعا الثانى إلى الأخوة العالمية ، وانصرف كل منهما عن العنصر والجنس ، وعن الوطن والإقليم ، فانتشرا وبشّر بهما الأنصار ونقلوا ما داخلهما من فكر وفلسفة ، ومن لغة وثقافة ، إلى الشرق أو إلى الغرب ، أو إلى الاثنين معاً .

أحدثت حرب الإسكندر إذاً ثورة فكرية فى بلاد الشرق القديم ، ووجّهتها وجهة ثقافية جديدة . وكانت مصر أسبق بلدان هذا الشرق سيراً فى الاتجاه الجديد ، وأبعدها إغراقاً فيه . ولعل ذلك قد تمثّل بصورة جلية فيما استقبلت به مصر الفرعونية الديانة اليهودية واليهود قبل عهد الإسكندر بألف سنة أو نحو ذلك ، وفيما استقبلت به المسيحيةَ والإسلام بعد ذلك بقرون ؛ فقد طاردت مصر اليهودية واليهود على نحو ما هو معروف ، على حين أنها اعتنقت المسيحية ودافعت عنها وكافحت من أجلها ضد اضطهاد أباطرة الرومان الأول ، ثم اعتنقت بعد ذلك الإسلام واستمسكت به وتعصبت له حتى يومنا هذا .

ومع ذلك فلم يكن الانقلاب مقصوراً على شؤون الدين فى حدوده الضيقة ،

وإنما هو قد شمل الثقافة بمعناها الأوسع . وقد ابرز ظهور العالمية والاتصال بين الشرق والغرب قيمة موقع مصر الجغرافى ، كحلقة الاتصال وحجر الزاوية فى اتصالات العالم . وكانت مصر قد استأهلت لأن تكون واسطة الثقافة بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ؛ بل عقد الاتصال بين الأجيال التى لاحَقَ بعضها بعضاً على مر الزمن فمصر بلاد غنية ، عريقة فى الحضارة والمدنية ، ذات ثقافة قديمة امتازت كما ذكرنا بالعراقة والاستمرار ووثيق الاتصال بغيرها من البلاد والشعوب . وبديهى فى معرض الوساطة الثقافية ونقل نتاج الفكر وتراث العقل أن يعين ذلك كله مصر على أن تحتضن ألوان الثقافة التى انتهت اليها أو مرت بها ، وأن يغذيها بما يحفظ لها حيويتها وإن صبغها بصبغة جديدة ، قد تباعد قليلا أو كثيراً بينها وبين ما كانت عليه قبل أن تصل أرض مصر . ولولا ما كانت عليه مصر من مدنية وحضارة عاشت على الزمن ما استطاعت بلادنا أن تحتضن ما احتضنت من ثقافات أجنبية ، ولا أن تنقل تلك الثقافات إلى أهل الشرق حيناً وأهل الغرب حيناً آخر . فكما أن فاقد الشىء لا يعطيه ، كذلك الجاهل لا يمكن أن يكون ناقل علم أو ناشر معرفة أو رسول ثقافة . ولقد رأينا مصر بعد عهد الإسكندر تحتضن ثقافة الإغريق وعلمهم ، وتحفظ تراثهم العقلى بعد أن مات فى بلاد الإغريق نفسها أو كاد ، وصارت الإسكندرية مركز الثقافة الإغريقية فى العالم ، حيث تزاوج الفكر الاغريقى بالفكر المصرى ، فظهرت فلسفة دينية جديدة ، وعلم وفن جديدان . وكانت الإسكندرية ومصر عامة أكثر ملاءمة من حيث الموقع الجغرافى ، فانتشرت الثقافة الجديدة على نحو لم يكن ليتاح للفكر الاغريقى لو لم يهيأ هذا المركز الجديد الذى يلائم الانتشار والاتصال بالبر والبحر على السواء ، والذى هو ملتقى أهل المناطق الحارة ومايتصل بها شرقاً وأهل المناطق المعتدلة وما يتصل بها غرباً . والحق أن فضل مصر والإسكندرية فى تغذية الثقافة الإغريقية وإذاعتها ، وكذلك فى حفظها على الزمن للأجيال اللاحقة فضل لاينكر . وقد تكررت هذه القصة فى صورة جديدة عند ما ظهر الإسلام ونبت فى بيئة صحراوية كانت صالحة للاستلهام والابتكار ، ولكنها لم تكن لتصلح للتغذية والتربية والإنماء ؛ فاحتضنت مصر الدين الجديد والثقافة الجديدة ، وغذتهما من تربتها ولبانها ؛ واتخذ الإسلامُ والثقافة العربية مركزاً جديداً ، ولكن ليس فى الاسكندرية ذات البيئة البحرية

والاتصال الشمالى ؛ وإنما فى القاهرة التى هى خليفة هليوبوليس القديمة مدينة العلم والنور ، حيث احتكّت أفكار المصريين منذ القدم بأفكار غيرهم من أهل المشرق . وهكذا أصبحت مصر والقاهرة خاصة قاعدة الثقافة الجديدة ومعقلها ، لا سيما فى عهود اضمحلال البلاد العربية ذاتها ؛ فظهرت فى مصر علوم الإسلام وفنونه ، وجانب كبير من فلسفته وتصوفه . ولولا أن قيّض الله للإسلام هذا البلد الأمين المضياف ، ذا التراث العقلى والفنى ، وذا الموقع الجغرافى المتصل ، ما كان له ذلك الذيوع ، ولا كانت لثقافته العربية تلك المكانة وذلك الاستمرار .

والغريب فى أمر مصر وعلاقاتها الثقافية — أو لعله ليس غريباً — أن التاريخ أعاد نفسه أكثر من مرة ، وإن اختلفت صور ذلك من عصر إلى عصر . وكانت هذه الأرض الطيبة على الدوام بلداً مضيافاً يرحّب بالوافدين إليه فى طلب الثقافة والمعرفة ، واللاجئين إليه فى طلب الرزق والأمان ، من حملة العلم أو دعاة الفكر . ففى مصر القديمة الفرعونية كانت هليوپوليس مقصد الوافدين من البلدان المجاورة ؛ ولم تقتصر اتصالاتها على بلاد المشرق ، وإنما وفد إليها فى أواخر العهد الفرعونى كثير من أبناء الإغريق الذين تعلموا ونقلوا كثيراً عن مصر القديمة . ثم فى العهد البطلسى والرومانى غدت الاسكندرية مركز العلم والنور والعرفان ، قصدها العلماء والباحثون وأهل الحكمة والأدب والفن ، فآوتهم الدوله وأجرت عليهم الأرزاق من خيرات مصر . ثم فى العهد الاسلامى تكررت هذه الصورة فى لون جديد ؛ فظهر الأزهر وأروقته التى جمعت العلماء والمتعلمين من مشارق العالم الاسلامى ومغاربه ؛ وجادت مصر فى كرم وغير منّ على أبناء تلك البلاد جميعاً ، لا بخيراتها وطيباتها فحسب ، بل كذلك بغذائها الروحى والعقلى الذى ما كان ليتهيأ فى بلد غير مصر . حتى إذا ما جاء العصر الحديث وأخذت مصر تتصل بالغرب الجديد ، وتقتبس من ثقافته وحضارته ألواناً تضيفها إلى ما جمعت عن الماضى ، وتزاوج بينها وبين تراثها المصرى والشرقى ، خرجت مصر على العالم بلون جديد من الثقافة المصرية العربية ، أو سمّها إن شئت الثقافة العربية المصرية ، وجادت مصر بهذه الثمرة الجديدة فى سخاء وفى غير منّ أيضاً على جاراتها القريبة والبعيدة . من أم الثقافة العربية ؛ بل إنها لم تكتف فى ذلك بما قدمت للوافدين عليها من كرم الضيافة ، وإنما هى

قد سعت إلى تلك البلاد جميعاً بأبنائها ورسلها تبعث بهم يحملون لواء الثقافة الجديدة ، ويطوّفون بمشعلها فى الشرق والغرب والجنوب .

وقد لا يعنينا كثيراً أن نحاول تفسير ما جُبِلت عليه مصر فى علاقاتها الثقافية من حب الأخذ وحب العطاء فى غير تضييق وفى غير حساب ، ومن التأثير فى العالم الخارجى والتأثر به فى غير وجل ولا تردد ، بل من عدم التقتير والتقييد من جانبها إن هى أعطت وأثّرت ، وقلة الحذر وعدم استشعار ما يسمونه مركّب النقص إن هى أخذت وتأثرت . فقد يكون مرجع ذلك كله ما كانت ترتكن إليه من قوة ذاتية مستقرة ، وثروة ثقافية كامنة ، جعلتها تحس بأن ليس يضيرها الأخذ ولا العطاء ، وأنها مهما أخذت ومهما أعطت فذخيرتها من تراث العقل والفكر ، ورصيدها من مقومات الحياة مادية ومعنوية ، ليس مما يخشى عليه من التغيير والتبديل أو النقص والتبديد . كذلك قد يكون ذلك النهر العظيم الذى يفيض بالخير فى كل عام ، وتلك التربة الطيبة التى تكاد تنبت كل الثمرات ، قد علّمت المصريين كرم السجية وسخاء الطبع منذ استقرت بهم الحياة فى وادى النيل ، فاشتقوا كرمهم من كرم الطبيعة ، وسخاءهم من سخائها . وقد يكون موقع مصر الجغرافى على مفترق الطرق هو الذى فطر المصريين على لطف المعاشرة وحب التآخى والمخالطة ، وهو الذى تطلّبَ منهم جميل المعاملة وإكرام الوفادة إن هم أرادوا أن يستجيبوا لمقتضيات ذلك الموقع استجابة طبيعية لا تكلف فيها ؛ إذ لا يملك المقيم على مقرن الأرضين ومفرق البحرين إلا أن يقوم بدور المضيف للقادم وعابر السبيل . وهكذا اعتاد المصريون أن يكونوا مضيفين ، وتبددت عنهم الريب والشكوك فى الطارقين مهما يكن لونهم وثقافتهم ، فأعطوهم وأخذوا عنهم ؛ وكانوا فى عطائهم جوادين كرماء ، أعطوا مما تجمّع لديهم من تراث تليد هو من نتاج البيئة المصرية ذاتها ، وتراثٍ طريف هو فى أصله من نتاج البيئات المجاورة ولكنه غرس فى أرض مصر فتغذى بلبانها واتخذ طابعها إلى حدٍّ يسير أو خطير . ثم إن المصريين لم يحسوا فى يوم من الأيام بالحرج فى أن يأخذوا عن غيرهم بعض ألوان الثقافة ؛ لأنهم كانوا فى ذلك ككل كريم لا يتردد فى الأخذ والقبول لأنه لا يتقاعد عن البذل والعطاء .

وعلى كل حال فمهما تكن علة هذه الظاهرة فى مصر والمصريين ، ومهما يكن مرجعها إلى أحد تلك الأسباب السالفة أو إليها مجتمعة ، فإن الذى يهمنا الآن

هو أن نسجل ما ترتب على ذلك من أن مصر لعبت دوراً بالغ الخطورة فى تاريخ الاتصالات الثقافية وانتشار الثقافة البشرية ، وأن هذا الدور كان مستنداً إلى دعامتين أساسيتين ، إحداهما ما أنتجته مصر ذاتها من ثروة عقلية ساهمت بها فى تطور العلم والمعرفة والثقافة البشرية العامة . وثانيتهما ما قامت به مصر للعالم من وساطة فى النقل وتمكين للاتصال بين الشرق والغرب عن طريق موقعها الجغرافى . والذى يريد أن يتفهم ماهية هذا الدور الخطير الذى لعبته مصر فى تاريخ البشر الثقافى تفهما عميقاً صحيحاً لابد له أن يجمع بين هاتين الدعامتين فى بحثه وألا يفرق بينهما بحال . وقد يكفينا للتدليل على ضرورة هذا الجمع أن نورد هنا عدداً من الأدلة والأمثلة المختارة .

وللثقافة البشرية فى عرف الباحث والمؤرخ نواح أربع أساسية ، يتصل كل منها بناحية من حياة الإنسان . فأما الأولى فناحية الروح وما يشبع نزعاتها من عقائد وأديان ، ومن فكر دينى وفلسفة روحية . وأما الثانية فناحية الذوق والتذوق الحسى ، وما يجيب حاجاتهما من فن منظور كالرسم والنحت والعمارة وغيرها ، أو مسموع كالغناء والموسيقى وأما الثالثة فناحية النطق والتصوير والتعبير ، وما يتصل بها من لغة وأدب ، وفنون تتصل باللغة والأدب . وأما الرابعة والأخيرة فناحية العقل والتفكير العقلى ، وما ينتج عنهما من مشاهدات للطبيعة ودراسه للأشياء واستخلاص للحقائق والقوانين وتبويب للمعرفة فى علوم وفنون لا تتصل بالروح والعاطفة وإنما تتصل بالطبيعة والعالم ، وما يحويان من قوى ومن أشياء . وهناك نواح أخرى وأفرع صغيرة من الثقافة والمعرفة البشرية العامة ، ولكنها تتصل من قريب أو بعيد بإحدى تلك النواحى الأربع الكبرى . وقد يبدو غريباً فى هذا التقسيم أن نضع الناحية الروحية فى رأس القائمة ، وأن نؤخر ناحية العقل إلى الذيل . ولكن هذا هو الترتيب الطبيعى والواقعى لما حدث فى تطور ثقافة الإنسان . فقد لوحظ أن الإنسان القديم نزع أول ما نزع إلى إشباع حاجاته الروحية ؛ وأنه إذ رأى الطبيعة من حوله وحاول فهم الأشياء عمد إلى تفسيرها تفسيراً روحيًّا ودينيا ، فنسب إنبات الحب مثلا إلى قوة غريبة لا يدركها وإن كان يؤمن بها ويرهبها ؛ وهو لم يحاول أن يفسر ذلك تفسيراً عقليًّا ، تصدقه المشاهدة ويقبله المنطق ، إلا فى دور لاحق من أدوار المعرفة . والواقع أن الانسان لم يعمد إلى

إعمال فكره وإجهاد قوته العقلية فى فهم الأشياء وإدراك حقيقتها إلا متأخراً نسبيًا فى تاريخ المعرفة البشرية . ولا يزال قسم غير ضئيل من شعوب البشر بتقاعد عن إعمال الفكر والعقل ، ويفصل فهم كثير من الأشياء على أساس روحى هو أقرب إلى فطرة الإنسان . بل لا يزال إجهاد الفكر وتحكيم العقل عملية شاقة يتكاسل عنها الفرد فى أرقى المجتمعات والشعوب ، ولا يعمد إليها ويعتاد ممارستها إلا بعد كثير من التعليم والترويض والتهذيب .

فأما ناحية الفن فقد ارتبطت منذ البداية ارتباطاً وثيقاً بناحية الروح : وكثيراً ما سُخِّر الفن ، ولا سيما فى أطواره الأولى ، لخدمة الدين وإشباع الحاجات الروحية والدينية للفرد والمجتمع . وكذلك الحال إلى درجة ظاهرة فيما يتصل باللغة والأدب والفنون الأدبية . ولم يسخَّر الفن والأدب فى خدمة الناحية العقلية والإنتاج العلمى إلا بقدر محدود وفى العصور المتأخرة نسبيًا من تاريخ الثقافة العامة .

لذلك كله كان من المستحسن عند الكلام على الثقافة العامة أن نبدأ بالناحية الروحية ، ثم ننتقل إلى النواحى الأخرى على التوالى ؛ لأن ذلك يكون أدعى إلى التمشى مع تطور الثقافة كما نعرفه اليوم . فإذا ما نحن علمنا أن مصر كانت من أقدم بلاد العالم مساهمة فى بناء المعرفة وإنماء الثقافة البشرية ، وجب أن تمتاز ثقافتها القديمة فى نواحى الروح والفن والأدب أكثر مما تمتاز فى الناحية العلمية . ولا ينبغى إذاً أن تقاس الأمور عند تقدير ما ساهمت به مصر القديمة بنفس المقياس الذى نلتزمه عند ما نقيس ما تساهم به الأمم الحديثة فى الفكر والثقافة . ويكفى أن نذكر أننا لو حاولنا أن نستعرض ما ساهمت به أمم أوربا الغربية فى إنماء ثروة البشر الثقافية خلال العصر الحديث والمعاصر لم نكد نجد إلا القليل مما يتصل بناحية الروح من الإنسان ، فى حين ينصب أغلب التقدم على الناحية العقلية المتصلة بالعلم والتطبيق العملى . فالحالة هنا هى فى جملتها عكس ما كانت عليه عند الأمم القديمة بصفة عامة .

ومع ذلك فقد يبدو أول الأمر أن مصر لم تساهم كثيراً فى بناء الناحية الروحية من ثقافة البشر وإقامة دعائمه الأولى ، وإن كانت قد ساهمت فيما بعد مساهمة رائعة فى نشر العقائد الشرقية ، وأهمها المسيحية والإسلام . ولكن الأمر اعمق من ذلك . ولقد كان المصرى منذ فجر التاريخ مستجيباً لبيئته ،

مستوحياً إياها ، مستلهما منها عقيدته التى كتب لبعض عناصرها الدوام على الرغم من أن مصر القديمة لم تخلف لنا ديناً منظما مشرعاً كما خلف لنا الشرق الأسيوى القديم فى دياناته السماوية . وآية ذلك أن المصرى الأول نظر إلى بيئته فوجد فيها ذلك الوادى الأخضر ، حيث يجرى الماء بالحياة وتجود الأرض بالطيبات ، وحيث يعيش ويسعى كل شىء حى ؛ ثم وجد على الجانبين تلك الصحارى المقفرة والفيافى المعسرة ، حيث الشمس المحرقة وحيث الخوف والموت والفناء . وقد انعكست صورة ذلك كله فى نفس المصرى وروحه ، فاهتدى إلى فكرة الخير والشر ، واتخذ لكل منهما إلهاً . ثم دار الكفاح بين الإلهين فى ذبذبة دائمة ، فانتصر الخير وإلهه «أوزيريس» حيناً ، وطغى الشر وشيطانه «سيت» حيناً آخر . . . وتلك فيما يظهر نفس الفكرة — فكرة وجود « الله » « والشيطان » — التى ترددت فيما بعد فى كثير من الأديان اللاحقة التى لا يبعد أن تكون قد تأثرت من قريب أو بعيد بالفكر المصرى .

وهناك عناصر أخرى لا تزال باقية من الديانة المصرية القديمة ؛ ربما كان أظهرها تلك القصة الرائعة ، قصة إيزيس وشقيقها وزوجها أوزيريس وابنهما حورس ؛ وهم جميعاً من الآلهة . وقد حملت إيزيس بابنها حورس من أبيه أوزيريس (وبطريقة إلهية غامضة) بعد وفاة هذا الأب . ويرى بعض الباحثين من أمارات الشبه بين هذه القصة وقصة مريم العذراء وابنها المسيح عليه السلام ما يسوّغ فى رأيهم أن تكون القصة المصرية قد أثرت ولو بطريق غير مباشر ، فى تكييف القصة المسيحية ، وذلك بعد أن انتشرت عبادة إيزيس وابنها الإله الطفل من مصر إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط وشرقه فى العهد الإغريقى .

وفى العهدين المسيحى والإسلامى لعبت مصر دوراً جديداً ؛ كانت فيه القاعدة التى انتشرت منها المسيحية إلى سواحل برقة ، وإلى بلاد النوبة والسودان ، وكذلك إلى الحبشة التى لا تزال ترتبط بالكنيسة القبطية ارتباطاً وثيقاً ، كما انتشرت بعض نظم المسيحية ، لا سيما نظام الرهبنة وحياة الأديار ، من مصر إلى بلاد البحر المتوسط وغرب أوربا . ثم جاء العهد الإسلامى فانتشر الدين الجديد غرباً وجنوباً نحو شمال إفريقية والسودان . ولعل من الطريف حقاً أن نلحظ أن توسع العرب وانتشار الاسلام نحو شمال السودان لم يجىء من بلاد العرب عبر البحر الأحمر مباشرة ، وإنما جاء عن طريق شبه جزيرة سينا

ومصر ووادى النيل ؛ لأنها كانت الطريق الطبيعى لهجرة البدو والقبائل ، وللتوغل الجنسى والثقافى إلى السودان . وهـذا فى حد ذاته مما يزيد الرابطة التاريخية ويبرز الوحدة الطبيعية والبشرية بين شطرى وادى النيل .

فإذا ما تركنا الدين جانباً ، وانتقلنا إلى ميدان الفن وإشباع حاجات الذوق والتذوق الحسى فى الانسان ، لنسوق بعض الأمثلة مما أنتجت مصر للانسانية ، وجدنا غير قليل من عناصر الخلود فى هـذه الناحية من تراث مصر الثقافى الأول . ومرجع الخلود هنا أيضاً أن المصرى استلهم بيئته فى الاهتداء إلى فنه . فهو قد نظر إلى بيئته الكبرى ، فوجد هذا الوادى المستقيم المنبسط يمتد سطح أرضه فى استواء لا اعوجاج فيه ، ويقوم على جانبيه حائطان رأسيان من الحجر الجيرى الأبيض المقطوع فى زاوية قائمة ، والذى يتكون من طبقات متوازية بعضها فوق بعض ، فى خطوط أفقية مستقيمة ؛ فإذا ما وصلنا سطح الهضبة امتدت الصحراء فى استواء عجيب مرة أخرى ؛ فليست هناك جبال ولا تلال تقطع خط الأفق . ولا بد للمصرى من أن يبتعد كثيراً عن جوار واديه ، وأن يتوغل إلى سواحل البحر الأحمر ليجد تلك الطبيعة ذات السطح المعقد المقطع ؛ أما فى الوادى وما جاوره فالطبيعة سهلة ومكونة من مسطحات تتقاطع فيها الخطوط الرأسية والأفقية . وقد انعكست صورة هـذه الطبيعة فى ذوق المصرى الذى قام على البساطة والسلامة وقلة التعقيد . وانعكس هذا الذوق بدوره فى فن المصرى ؛ فرأيناه يقيم المعابد والهياكل مثلاً فى أشكال هندسية مربعة أو مستطيلة ، ويرفع جدرانها فى هيئة تتسق والطبيعة التى نقل عنها ؛ ورأيناه يقيم الهرم مثلاً فى شكل هندسى ذى مسطحات بسيطة مستوية وأضلاع متساوية مستقيمة ، ينظر إليه الناظر فلا يرى غير هذه البساطة الرائعة التى تتمشى مع ما فى الطبيعة المحيطة من جمال بسيط وسحر هادئ وديع . فلنقارن بين هذه الهياكل المصرية القديمة ، أو بين هذا الهرم البسيط الرائع ، وبين هيكل من هياكل القرون الوسطى والعهد القوطى فى أوربا من كنائس وغيرها ، حيث المبانى تتقاطع فيها الخطوط والمنحنيات ، وتكثر فى سطحها الفجوات والنتوءات ، وتبرز من واجهاتها التماثيل والنقوش الكثيرة ، وتختلف مستوياتها فى الارتفاع والانخفاض ، ويختلط فيها الظل والنور ؛ فيثير كل ذلك فى نفس الرائى رهبة مصدرها التعقيد المحير ، وروعه مرجعها الشعور الذى

لا يكاد يستقر على شىء معين مما يراه الناظر . أما الهرم فإن سحره وروعته ورهبته تربض كلها فى بساطة وجلال ووقار ، وتكمن فى أشكال ومسطحات هندسية بسيطة ، استطاع المصرى أن يضمِّنها فنه ، وأن يرمز بها إلى أفكار من الدين والعقيدة لا تقل فى عمقها عما ترمز إليه كنيسة العهد القوطى فى أوربا .

وكذلك تمثلت بساطة الفن وسلامة الذوق فى العمارة المصرية خلال العصور ، ثم فى فن الرسم والتصوير . . . واحتفظ المصرى بهذه الصفة كامنة فى فنه على مر الزمن . حتى إذا ما جاء الاسلام ، وهو دين بساطة ، برزت قيمة هذه المزية فى الفنان المصرى ، وتمثلت فيما خلّفه من العهد الإسلامى من عمارات ومساجد تحلّيها رسوم عربية هندسية بديعة لا تزال تستهوينا بجمالها حتى اليوم . ومن يدرى ! فقد يبعث العهد الجديد فى نهضتنا الحديثة روحاً جديداً فى الفن المصرى . وقد رأينا العالم يتجه فى فن العمارة نحو البساطة والخطوط المستقيمة والواجهات المستوية والأشكال الهندسية فى الرسم والتصميم وفى الزخرفة والتزويق ؛ وقد يجد الروح المصرى مجالا جديداً فى هذا الاتجاه .

فإذا ما انتقلنا الآن إلى الناحية الثالثة من الثقافة وهى ناحية اللغة والأدب وجدنا المصريين أسبق الناس جميعاً إلى استنباط الكتابة . وقد عبروا عن حاجاتهم بل عن أفكارهم فى صور جميلة مشتقة إلى درجة ظاهرة من البيئة المصرية ذاتها . وليس يعنينا تتبع تاريخ الكتابة فى مصر ؛ ولكن هناك رأيا يقول إن المصريين أثروا فى غيرهم من أهل المشرق القريب منهم وبلاد فينيقية ، وإن الكتابة المصرية القديمة أثرت فى بعض الكتابات اللاحقة عن هذا الطريق . ومهما يكن من أمر ذلك فقد أنتج المصرى القديم أدباً رائعاً فى لغته المصرية ، وانحدرت بعض آثار ذلك الأدب لا سيما الجانب الشعبى منه إلى العصور اللاحقة ؛ وربما كانت قصة الملاح المصرى التائه أصدق مثل على ذلك ؛ إذ أنها خُلدت فيما بعد فى قصة السندباد المعروفة فى كثير من الآداب الشرقية القديمة والحديثة .

وقد عاشت اللغة المصرية القديمة وآدابها أكثر من ثلاثة آلاف سنة ؛ وتلك حقبة طويلة من الدهر ، لا تكاد تضارعها حياة لغة أخرى من لغات التاريخ ، غير لغة أهل الصين . ومع ذلك فإن آثارها لم تمت تماماً ؛ فهى لا تزال ماثلة فى بعض طرائق التعبير فى حديث أهل مصر ولهجاتهم ، وفى بعض أغانيهم

وأقاصيصهم الشعبية ، وإن كانت لغة التعبير قد تغيرت وحلّت العربية محلّ المصرية القديمة ، أو محل القبطية التى انحدرت عن المصرية القديمة .

وفى العهد الإسلامى أخذت مصر اللغة العربية عن بلاد العرب ، ولكنها لم تقنع بأن تبقى عالة على تلك البلاد من ناحية الأدب والإنتاج الأدبى ، وإنما صار لها بالتدريج أدبها المصرى العربى ؛ بل صارت هى فى وقت من الأوقات القوّامة على لغة القرآن وآدابها ، ومركز الثقافة اللغوية والأدبية الأول فى العالم الإسلامى بأسره . وهى ما زالت كذلك حتى يومنا هذا .

فإذا ما انتهينا إلى الناحية الرابعة والأخيرة من نواحى الثقافة العامة ، وهى ناحية العقل ، وإشباع حاجات الفكر فى المشاهدة والتعليل واستنباط العلوم وما يتصل بها من فنون وتطبيق عملى ، برزت لنا مساهمة مصر منذ القدم ، على الرغم من أن طبيعة الأشياء كانت تقضى كما ذكرنا بأن تكون تلك المساهمة على قدر يسير فى تلك الفترة المتقدمة من التاريخ . وكان ما ساهم به المصريون القدماء من هذه الناحية منحصراً على وجه الخصوص فى علوم الفلك والرياضات وبعض العلوم التطبيقية كالهندسة ومايتصل بها . وهنا أيضاً كانت الطبيعة هى المعلم الاول للمصرى ، الذى لاحظ مثلا حركات النجوم فى أفلاكها ، كما لاحظ انقسام السنة إلى فصول ، فاهتدى إلى وضع تقويم يرجع عهده فى رأى بعض الباحثين إلى أواخر الألف الخامسة قبل الميلاد ، ويقوم على تقسيم السنة إلى أشهر على نظام يشبه التقويم القبطى ، الذى لا يزال معمولا فى الزراعة المصرية إلى يومنا الحاضر . كذلك شاهد المصرى حركة الشمس ، وقسم النهار والليل إلى ساعاتهما المعروفة ؛ وساعد كل ذلك على ضبط الحياة وتوقيتها ، وهو أمر لازم من أمور المدنية ومستلزماتها الأولى .

كذلك برع المصرى فى علوم الحساب والرياضة ، وعبر عن عملياتها تعبيراً واضحاً ، وإن كان قد استخدم الرموز البسيطة فى التعبير . ثم انتقل إلى الهندسه نظرية وفراغية وتطبيقية ؛ وعمد منذ البداية إلى الدقة فى استعمال المقاييس والمعايير رغم قلة الآلات والأدوات لديه . فهو مثلا قد تصور شكل الهرم قبل أن يبنيه ، ولابد أنه قد رسمه لنفسه قبل أن يخرجه إلى حيز الوجود ؛ ثم هو قد قاس أبعاده فى الطبيعة ، ونحت حجارته على شكل مكعبات مستوية السطح متساوية الأبعاد إلى حد لا يتحقق إلا لمن توافرت له الدقة فى العلم والعمل . . .

وتلك الدقة بعينها هى التى تمثل عنصر الخلود فى العلم المصرى القديم ؛ إذ لولاها ما استطاع المصرى أن يخرج للناس آثاره الخالدة ؛ بل لولاها ما استطاع أن يهيئ للحياة المصرية مقوماتها المادية الأساسية ، من قياس مياه النيل وضبطها ، وشق الترع والقنوات وحساب مناسيبها إبّان الفيضان ، وغير ذلك مما لم يكن ليستطاع بدونه إيصال الزراعة المصرية إلى ما وصلت إليه فى ذلك الزمن السحيق .

وقد استطاعت مصر أن تحمل لواء هذه العلوم الفلكية والرياضية والهندسية وغيرها من العلوم التطبيقية وذات القيمة العملية فى الحياة حتى جاء الإغريق ، فتلقوا عنها الرسالة ، وحملوا المشعل بدورهم إلى أن استعادته مصر فى عهد البطالسة الأُوَل ؛ ثم انتقل منها بعد ذلك إلى أيد أخرى فى الشرق والغرب .

* * *

تلك فى إيجاز قصة مصر ومكانتها فى تاريخ الثقافة البشرية العامة ، ومساهمتها بالإنتاج حيناً ، والنقل والإذاعة حينا آخر . وهى قصة لا تخلو من كثير من الروعة لمن شاء أن يمعن فى دراستها ويدقق النظر فى تفصيلاتها . بل هى تكاد تكون فى جملتها صورة حية من تاريخ الإنسانية فى كفاحها الطويل نحو ثقافة عالميه ، تقوم على أساس الأخذ والعطاء ، بين الشعوب فى حرية وسخاء . ولقد كانت مصر أم المدنية وأم الثقافة فى كثير من عناصرها وألوانها ؛ وبقيت مصر على الزمن أمة ذات مدنية وحضارة بعد أن مات غيرها من الأمم . فأين منها بلاد سومر وبابل وآشور ، حيث قامت مدنية زراعية عريقة ، ولكنها اندثرت ، فبارت أرضها وجف زرعها وعمّها البوار والخراب ، إلى أن تجددت فى بعض عصورها اللاحقة ؛ على حين أن أرض مصر بقيت تزرع وتؤتى أكلها فى كل عام خلال آلاف السنين . وأين منها كذلك — ورغم ما قد يبدو فى ظاهر الحديث من إسراف — بلاد الإغريق حيث ازدهرت الحضارة والثقافة ازدهاراً هائلاً ولكن خلال قرون معدودات ، ماتت بعدها فى تلك البلاد موتا . ولولا أن قيّض الله لها مصر لعفى عليها الزمن ، وجرى على كثير من أصولها النسيان . وأين منها بلاد الهند ، حيث قام خليط من الحضارات والثقافات ، شارك بعضها بعضاً فى قدر معين من العناصر المشتركة ، ولكنها بقيت على الزمن غير متسقة ، بل متفاوتة فى مراحل التقدم تفاوتاً لم يُتح للهند معه أن

تخرج للناس تامة الوحدة فى أى دور من أدوار التاريخ . ثم أين منها بلاد الصين ، وهى عريقة فى المدنية والثقافة ، مستمرة على الزمن حتى يومنا هذا ؛ ولكنها مع ذلك ورغم ضخامتها واتساع مساحتها ، لم تكن إلا لنفسها وما جاورها وأحاط بها من بلاد ؛ فهى لم تساهم بشىء يذكر فى خلق ثقافة عالمية . بل أين منها بلاد الغرب ذاتها ، وتاريخها الثقافى لا يعدو فصلا قصيراً من كتاب الزمن !

لقد أنتجت مصر كثيراً فى تاريخها الطويل ، ومنحت العالم كثيراً من نتاجها الطيب ، وكانت كريمة فى ذلك إلى أقصى حدود الطاقة ؛ بل إنها وهبت للعالم أرضها وموقعها الجغرافى الفريد ، فربطت بين أجزائه ، وقرّبت بين ماضيه وحاضره ؛ وأصابها من وراء ذلك بعض الخير ، أو إن شئت فقل أصابها خير كثير فى بعض العهود ؛ ولكنها قاست من وراء ذلك فى كثير من الأحايين . ولعل فى اختلاف تاريخنا السياسى بعد عهد الإسكندر عنه فى العهد الفرعونى ما يشهد بما حدث من تغيير بالغ ؛ إذ لم يعد أمر هذا التاريخ وتوجيهه مقصوراً على أهل الوادى وظروفهم المحلية ، وإنما اتصل كذلك بمسائل كثيرة « عالمية » لا دخل لمصر فيها ؛ وأفلت بذلك زمام التاريخ من أيدى مصر وأبنائها إلى أيد كثيرة امتدت إلينا من أدنى الأرض حيناً ومن أقصاها حيناً آخر ، وساهمت فى توجيه تاريخنا السياسى بقسط كبير .

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر ، حتى فى عهود ضعفها السياسى ، أن تقوم على تراث العالم من ثقافات التاريخ القديم والوسيط شرقية وعربية ، وأن تحفظ كثيراً من عناصر تلك الثقافات لتفيد منها الإنسانية فى أجيالها الثقافية .

وبعد ، فأغلب الظن أننا نعيش الآن فى فترة تطور من تاريخ الثقافة البشرية والاتصالات الثقافية العامة . وسواء أدرك العالم حقيقة ذلك أم لم يدرك فإن رسالة مصر فى هذا الطور الخطير لن تقل عما اضطلعت به من رسالات مماثلة فى الماضى . وسواء أراد المصريون أم لم يريدوا — وهم مريدون فيما يبدو من ظاهر الأمر — فإن بلادهم ستكون همزة الوصل بين الشرق والغرب فى هذا الجيل والأجيال القادمة . ومن الخير لمصر وللعالم أن يُمكَّنَ لها فى أداء رسالتها والاضطلاع بواجبها على خير وجه وأكمله . ولابد لذلك من أن يتوافر شرطان أساسيان . فأما الأول فأن يدرك القائمون على شؤون الثقافة فى مصر خطورة هذا الدور الذى فرضه علينا موقعنا الجغرافى وتاريخنا الطويل فى شؤون الثقافة العالمية .

ولن تكون مصر جديرة بموقعها فى قلب العالم إذا هى قنعت بأن تكون مجرد « طريق » تمر فيه تيارات الثقافة بين الغرب والشرق « دون توقف » ؛ ولن تكون خليقة بماضيها الرائع ولا حقيقة بأن تتبوأ مكانها فى عالم المستقبل كما تبوأته فى عالم الماضى إذا هى لم تعمل لأن تكون « مركز اتصال » و « قاعدة » يلتقى عندها الشرق والغرب ، وتكون هى واسطة التعارف . ومصر لن تبلغ ذلك حتى تبدأ بنفسها ، فتأخذ من ثقافة الغرب كل ما تستطيع دون أن تحس حرجاً أو تستشعر مركّب نقص ، ثم تحيى من تراثها القديم كل ما تستطيع إحياءه من ثقافة مصر الفرعونية والبطلسية والعربية الإسلامية جميعاً ؛ ففيها كلها من عناصر الثروة ما هو جدير بالبعث والحياة . . . وفى هذا الجمع بين القديم والجديد وبين المصرى والشرقى والغربى من ألوان الثقافة ما ينبغى أن يساهم فيه أكبر عدد ممكن من المصريين ؛ فنحن فى عصر لم يعد يحتمل أن يخص بالثقافة فريق من أهل مصر دون فريق . وكلما كثر المساهمون من المصريين فى خلق هذا اللون الجديد من الثقافة المصرية وتكييفه زاد الاحتمال فى أن يقيّض الله لمصر من أبنائها عدداً أوفر ممن يحملون لواء الثقافة العليا ويساهمون بالخلق والابتكار ، فيخرجون للعالم الشرقى والغربى على السواء ثمرات جديدة من الفكر ، تكون عنوان مساهمة مصر الناهضة فى إنماء الثقافة العالمية الجديدة .

وأما الشرط الثانى الذى ينبغى أن يتوافر قبل أن يمكّن لمصر فى قضاء واجبها وأداء رسالتها نحو العالم ، فأن يدرك هذا العالم خطورة ما تستطيع مصر أن تؤديه فى تعريف الشرق بالغرب وتعريف الغرب بالشرق ؛ وهى البلد الذى عرف الاثنين ، واحتك بهما منذ قرون وقرون ؛ بل هى ربما كانت البلد الوحيد الذى يستطيع كل من الشرق والغرب أن يجد فى ثقافته وتراثه الثقافى قليلا أو كثيراً مما يعرف ومما يطمئن إليه . وليس من شك فى أن العالم بحاجة إلى أن تتوثق الصلات فيه بين الشرق والغرب ، وأن تقوم على أساس من التقارب الفكرى والثقافى . ولا يكاد بلد يستطيع أن يؤدى فى هذا السبيل ما تستطيع أن تؤدى مصر . ولكن من حق مصر على العالم فى الشرق والغرب جميعاً أن تَلْقَى العون والتقدير فيما هى مستعدة بل راغبة فى أن تضطلع به . ولن يكون من صالح الإنسانية أن يؤدى ضعف مصر واضطرابها السياسى إلى إضعاف جهودها من ناحية الثقافة والتثقيف ، أو أن يستمر ذلك الضعف والاضطراب

فتنصرف جهود هذه الأمة إلى ما لا يخدم إحياء الثقافة ونشر العلم والمعرفة . ولقد حدث خلال القرن الماضى وهذا القرن الذى نعيش فيه أن عرف العالم المتمدن لبلاد اليونان ما سبقت به من فضل فى تاريخ المدنية والحضارة ، فذكر لها ذلك فى جهادها السياسى والقومى العام . . . وما أحراه أن يعرف اليوم وأن يذكر ما سبقت به مصر إلى بلاد اليونان وإلى البشرية جمعاء من فضل سيبقى أثره شاهداً على الزمن !

سليمان حزين